مادة المعنى
في نقد الأدب عند العرب

د. عبدالعزيز بن عبدالله الخراشي (*)

● **تأطير:**

أكبّ دارسو النقد الأدبيّ عند العرب على عديد من مجالات الدرس النقديّ من حيث تاريخه، وقضاياه، ومقولاته، ومصطلحاته، وربما استأثر باهتماماتهم ما يتصل بالخطاب الأدبيّ أكثر من المتن أو المحتوى باعتبار ترسّخ النِّظْرة المعيارية في الفكر النقديّ إذ ذاك.

وبقي المتن أو المحتوى بعيدًا عن مشاغل دارسي النقد الأدبيّ عند العرب رغم أوّليّته في صناعة الخطاب الأدبيّ، وأولويّته في إدراك عوالم نشأته الأولى قبل أن يصير خلقًا آخر؛ ممّا حفّزني إلى المضيّ في استكناه تلك العوالم، وإدراك البعد العرفانيّ في تشكّل الخطاب الأدبيّ من منظور تصوّر النقاد القدامى بدءًا بالمنجز النقديّ في القرن الثالث الهجريّ حتى نهاية القرن السابع الهجريّ لدى حازم القرطاجنيّ.

وحيث إن الموضوع ينتجع فكرة خصيبًا، وينفتح على مدّة زمنية ممتدة متنوّعة مشارب أربابها؛ فإن ذلك يملي جرد المدوّنة النقديّة في الحقبة المحدّدة، واستقراءها استقراءً تامًا، وتدبّر معطياتها المعرفية إزاء هذا الموضوع.

ولا يروم هذا الموضوع ترديد ما استقرّ في المنجز النقديّ إزاء المعنى وقضاياه، ولا معاودة النظر في التحقق من دلالة مصطلح "المعنى" بسيطًا الذي وُضع مقابلًا اللفظ تارةً، ومرادفًا الغرض تارةً ثانية، ومرادًا به الصورة مقابل

(*) أستاذ الأدب والنقد المساعد – قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب – جامعة الملك سعود.

الشكل تارةً ثالثة[1]، بل قصد مرحلة تسبق الخطاب، تسكن وعي المنشئ، وتستكنّ فيها مادّة النشأة الأولى؛ لذا صحّ العزم على وسم موضوع البحث بمصطلح مركّب "مادّة المعنى"، ثم جاءت متوالية العنوان بما يحدد مجال النظر "فينقد الأدب عند العرب"[2].

وقد استضاء هذا البحث بأهل الذكر في الاصطلاح النقديّ، وتبع نهجهم في ضبط محددات المصطلح، والتزام قواعده، وشروط وضعه، واستقراء مظانّه[3]؛ كما أنه تملّى جملة من الأبحاث التي قاربت المعنى من وجوه غير أنها لم تنفذ إلى غور عملية إنتاجه، بل إن منها ما قال: "أما في التراث النقديّ العربيّ؛ فإن الاهتمام بمعنى النص يبدو مركزيًّا، وإن كان البحث في عملية إنتاجه يبدو شبه غائب في معظمها"[4].

---

(١) انظر: نقد الشعر في القرن الرابع الهجريّ، د.قاسم مومني، دار الإصلاح للطباعة والنشر، الدمام، د.ط، د.ت، ص٢٨٦. وانظر تشعّب هذا المصطلح وتعقّده وتنوّع ضروبه: مصطلحات نقد الشعر عند نقاد القرن الرابع الهجريّ (دراسة وصفية، نسقية، تاريخية)، د. عبد الرزاق جعنيد، عالم الكتب الحديث، إربد، ط١، ٢٠١٦م، ص٤٤-٤٨.

(٢) خصّ هذا البحث المدونة النقديّة، ولم ينتجع رأي الفلاسفة المسلمين الذين قاربوا الموضوع بنظرة فلسفية صرفة مأتاها المراوحة بين القوة المفكِّرة بإعمال العقل، والقوة المتخيلة بإعمال الوهم اللتين تندرجان في القوى النفسانية المدركة- وإن أفاد منها بقدر متفاوت بعض نقاد الأدب عند العرب نحو حازم القرطاجنيّ-. انظر: نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد، د. ألفت كمال الروبي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، ٢٠٠٧م، ص١٩-٦٨.

(٣) انظر ما سنّه د. أحمد مطلوب ممّا تأسّت به هذه الدراسة: في المصطلح النقديّ، منشورات المجمع العلمي، بغداد، د.ط، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٧-٣٢.

(٤) عنيتُ -على سبيل المثال-: أعمال الندوة التي نظمها قسم العربية من ٢٤-٢٧ أبريل ١٩٩١م بكلية الآداب بمنوبة في جامعة تونس التي جمعت في إصدار بعنوان: صناعة المعنى وتأويل النص، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ١٩٩٢م، مجلد: VIII. والقولة واردة في سياق واحد منها موسوم بـ(معاني النص الشعريّ: طرق الإنتاج وسبل الاستقطار) لمحمد عبد العظيم، ص٢١٣.

وتحرّى كذلك جملة من الآثار النقديّة الحديثة التي أخلصت نظرها إلى المعنى وما يتصل به من قضايا ومشكلات؛ فكان أن نظر إلى ما أنجزه د.مصطفى ناصف في كتابه: "نظرية المعنى في النقد العربي"(١)؛ متخذاً عبد القاهر الجرجانيّ مركزًا في تحليل نظرة القدامى إلى أنحاء المعنى ووجوه التفسير والتأويل غير أن مجال النظر تَكَرَّس في مرحلة الخطاب لا ما سبقها مما هو رهان هذه الدراسة اصطلاحًا ومقاربةً التي سعت –فيما سعت إليه– إلى التخفيف من غلواء عبارة المؤلف حين قال: "إن فاعلية الذهن أو اللغة لا أثر لها. والقوة الإنسانية الخالقة تهمل في النقد العربي..."(٢).

وأمّا دراسة د.محمد بركات حمدي أبو علي الموسومة بـ"مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة"؛ فقد تناولت المعنى من جهة كونه بريدًا لمراد صاحبه؛ فهو الميسم الأول والأكبر، ولم تقصد "المعنى النفسي؛ أي: الذي يعتمل في النفس، ولا يعرفه إلا صاحبه... إنما [قصدت] المعنى المنطوق"(٣)؛ فبحثته في إطار التذوق الجماليّ.

وتجيء دراسة د.حسن طبل "المعنى الشعريّفي التراث النقديّ" أوسع مدًى، وأعمق رؤيةً، وأكثر قربًا؛ حيث نظر بعين إلى المعنى المجرد، أو الأفكار الأولية، وبأخرى إلى المعنى الشعريّالذي هو معقد دراسته؛ مبتغيًا التفريق بينه وبين المعنى الخام؛ لذلك وسم الأخير بما يكاد يضاد ما انتهى إليه نظره في المعنى الشعريّ؛ كما لم يَقَرَّ على اصطلاح واحد؛ فتارةً يدعو ما نحن بصدد

---

(١) هذا الكتاب تالٍ لكتابيه: "الصورة الأدبيّة"، "مشكلة المعنى في النقد الحديث"، وهو على ما يبدو إضمامة لمقالات بدت أوزاعًا.

(٢) نظرية المعنى في النقد العربي، د.مصطفى ناصف، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط،د.ت، ص٤٦.

(٣) مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة، د.محمد بركات حمدي أبو علي، دار البشير، عمّان، د.ط، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٩-١٠.

تناوله: (المعنى المجرد)، وتاراتٍ يدعوه بـــ(الفكرة المحورية، الغرض، المادّة الغفل، المعنى الخام، الجذر، الأصل، الأفكار الأولية، الموضوع)؛ ممّـــا أملـــى على هذا البحث ضرورة الاستقرار الاصطلاحيّ، والاستقلال القرائيّ لمكوّناته ومقوّماته وصلته بعدُ بالخطاب الذي هو محمل المعنى الشعريّ[١].

واختطّ محمد بن العربي الجلاصي خطاطة علمية في سبيل تكـــريس مـــا دعاه "سياسة المعنى"[٢]؛ مبتغيًا بناء تصور نظري ومنهجي عن بلاغة المعنى، وصياغة أنسقة تحليلية وتأويلية للممارسة النصية غير أنه لم يكن من طمـــوح هذه الدراسة الموسّعة تناول "مادّة المعنى"، أو عوالم الإنتاج الأولى، أو النشوء الأولي للنص؛ مما يعتزمه هذا البحث.

ولا يُنكر في هذا الصدد ما عقده د.أحمد الودرني في حيّـــز مـــن كتابـــه "نظرية المعنى" الذي استأثر بالنصيب الأوفى (مسألة المعنى في النقد الغربيّ)، وذهب بما بقي (نظرية المعنى عند القدماء فـــي نمـــاذج مـــن النقـــد العربـــي المعاصر)؛ حيث قفا فيه من منظور نقد النقد ما قدمـــه د.مـــصطفى ناصـــف، وكذلك د.محمد بركات أبو علي في كتابيهما المذكورين آنفًا؛ إضافة إلى مثاقفة آراء د.حمادي صمود؛ مقدمًا ملحوظاته المنهجية والعلمية التي كان لها محـــل اعتبار في إعداد هذا البحث[٣].

---

(١) انظر: المعنى الشعريّ في التراث النقديّ، د. حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـــ/١٩٩٨م، ص٤.

(٢) وزّع مشروعه "سياسة المعنى" الصادر عن مؤسسة مرايا الحداثة للإنتاج الفكري، ط١، ٢٠٠٦م، في خمسة أجزاء هي: ١- النظرية البلاغية. ٢- السنّة الشعريّة: بلاغة القدم. ٣- تحولات الأشكال: شعرية التوليد. ٤- ثورة الأشكال في جماليات الحداثة. ٥- النظرية الشعريّة.

(٣) انظر: نظرية المعنى، أ.د. أحمد الودرني، مركز النشر الجامعي، تونس، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٠٢-١٤٢.

إن هذا البحث يرود منطقة وسطى بين الدرسين: اللسانيّ والبلاغيّ؛ فإذا كان مشغل اللسانيّين تحرير الصلة بين الكلام والكيان، وكان مشغل البلاغيّين إدراك جمالية تمثيل الخطاب للكيان؛ فإن طموح هذا البحث محاولة الوصول إلى حقيقة الكيان باعتباره مرتكز هذين المشغلين؛ مجيبًا عن أسئلة ثلاثة مفادها:

١-لماذا مصطلح "مادّة المعنى"؟

٢-ما مقوّمات "مادّة المعنى"؟

٣-كيف تكون الصلة بين "مادّة المعنى" والخطاب الأدبيّ؟

كما يتغيّا تحقيق الأهداف الآتية:

- بيان أهمّيّة دراسة "مادّة المعنى" في الدرس النقديّ.
- التعريف بمصطلح "مادّة المعنى".
- الكشف عن مقوّمات "مادّة المعنى".
- إدراك الصلة بين "مادّة المعنى" والخطاب الأدبيّ.

وقد أملى ذلك تأسيس البحث على المحاور الآتية:

تأطير: (التعريف بالموضوع، وبيان أهميته وحدوده المنهجية، والدراسات السابقة، والأسئلة البحثية، والأهداف، والخطة).

عرض:

١-"مادّة المعنى": الحدود والآفاق.

٢-مقوّمات "مادّة المعنى".

٣-الصلة بين "مادّة المعنى" والخطاب الأدبيّ.

تركيب: (النتائج والتوصيات).

- **عرض:**

١-"مادّة المعنى": الحدود والآفاق:

يتكوّن هذا المصطلح من بناء مركّب على أساس إضافة الجزء إلى الكلّ؛ فالمعنى هو الكل الذي عليه مدار نظر الدرس النقديّ، ومادّته نحوٌ من أنحاء النظر إليه.

ولعل من الجدير قبل مقاربة المصطلح بيان دلالته اللغوية؛ فالمادّة تعني لغة: "كل شيء يكون مددًا لغيره"(١)، "ومادّة الشيء: ما يمدّه"(٢)، ولا يكاد يندّ صاحب التعريفات عن هذه الدلالة اللغوية، وإن اختلفت جهة النظر؛ إذ يقول: "مادّة الشيء: هي التي يحصل الشيء معها بالقوة، وقيل: المادّة الزيادة المتصلة"(٣)؛ فالمتّجَه إليه في اللسان هو الوظيفة والماهيّة. أمّا في الآخر؛ فإنّ المتّجَه إليه هو تفسير العلاقة بين الناتج والمنتِج، والحاصل أنّ المادّة قوّة مولِّدة/ مولَّدة في آن.

كما أنّ المادّة هي المقابل اللغويّ لمصطلح (الهَـيُولى/ Hyle) الذي استقرّ في الفلسفة اليونانية؛ لذا نجد صاحب التعريفات يقول: "الهيولى: لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادّة"(٤).

وهذا التصور هو ما كان رائجًا في مدوّنة النقد الأدبيّ عند العرب التي هي عماد موضوع هذا البحث؛ فقد وردت عبارة "مادّة" وما اشتُقَّ منها في غير مصدر من نوع:

- ما ساقه ابن طباطبا العلويّ من وصايا تندرج في تكوين المقدرة الشعريّة لدى الشاعر؛ حيث يحمله على أن "يديم النظر في الأشعار التي قد اخترناها لتلصق معانيها بفهمه، وترسخ أصولها في قلبه، وتصير موادَّ

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، مادّة (م.د.د)، ج٣/ ص٣٩٧.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٣٩٧.

(٣) التعريفات، السيد الشريف علي الجرجانيّ، وضع حواشيه وفهارسه: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٩٥.

(٤) المصدر السابق، ص٢٥٣.

لطبعه..."[1]، ولن يعجل الحديث في تبيّن المستفادات من هذه القولة، أو المعطيات لما هذا البحث بسبيله؛ مما سيأتي لاحقًا، بل النظر هنا إلى منشأ النص وانطلاقته من "مادّة المعنى".

وقد أعاد التعبير بـ"مادّة" ختامَ قولته الجامعة؛ معقّبًا على خبر أورده؛ فقال: "فكان حفظه لتلك الخطب رياضة لفهمه، وتهذيبًا لطبعه، وتلقيمًا لذهنه، ومادّة لفصاحته، وسببًا لبلاغته ولَسَنِه وخطابته"[2].

- ما نصّ عليه قدامة بن جعفر مستهلَّ كتابه (نقد الشعر)؛ حيث أبان أهمية معاني الشعر بقوله: "إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادّة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة كما يوجد في كل صناعة من أنه لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها، مثل الخشب للنجارة، والفضة للصياغة"[3]؛ فعبّر عن أصل الصناعة الشعريّة بالمادّة الموضوعة.
- ما عبّر به أبو حيان التوحيدي في سياق وصف الكلام وخطر اللسان؛ إذ جعل "مادّته من العقل"[4].

---

(١) عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ، تحقيق: أ.د. عبدالعزيز بن ناصر المانع، من إصدارات كرسي د. عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها (٣٥)، جامعة الملك سعود، الرياض، ط٢، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م، ص١٤.

(٢) عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ، ص١٥.

(٣) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، د.ت، ص١٩. وقد تابعه ابن سنان الخفاجي بشيء من التفصيل في الإفادة من هذا التصور. انظر: سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٩٣.

(٤) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، د. أحمد رشدي شحاته عامر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٣٦هـ/٢٠١٤م، ص١٨.

- ما علّل به ابن رشيق القيراوني من سبقْ توارد أبيات حقّها التأخير عمّا يشغل خاطر الشاعر؛ إذ عزا ذلك إلى "قوة طبعه، وانبعاث مادّته"(١).
- ما آخذَ به حازم القرطاجنيّ الشعراء المتأخرين الذين "لم يوجد فيهم... من نحا نحو الفحول ولا من ذهب مذاهبهم في تأصيل مبادئ الكلام، وإحكام وضعه، وانتقاء موادّه التي يجب نحته منها"(٢). وفي موطن آخر يُؤاخي بين الصناعتين في (مادّة المعاني)؛ فيقول: "لمّا كان علم البلاغة مشتملًا على صناعتي الشعر والخطابة، وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادّة المعاني، ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع... وجب أن تكون أعرق المعاني في الصناعة الشعريّة ما اشتدت علقته بأغراض الإنسان..."(٣). وفي موطن ثالث يردّ النظر في المعنى إلى جهات؛ منها مادّته؛ فيقول: "والنظر في المعنى من جهة ما يكون عليه في نفسه لا يخلو من أن يكون متعلقًا بما يرجع إلى مادّته، أو بما يرجع إلى تأليفه، أو بما يرجع إلى مقداره، أو بما يرجع إلى هيئته"(٤).

إنّ هذا التواتر على التعبير بالمادّة باعتبارها الأصل أو الجوهر الذي به تنهض الصناعة الشعريّة ليقوّي الذهاب إلى الاصطلاح بما عقد عليه موضوع البحث "مادّة المعنى" خاصة أنها استقرّت في المعجم الاصطلاحيّ على هذا؛

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيراوني، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج١/ص٢١٠.وانظر التعبير بـ(مادّة) في سياق تصوير طبيعة الشعر وأحوال مراودة الشاعر له؛ إذ عبّر بقوله: "...وتنزف مادّته...". المصدر السابق، ج١/ ص٢٠٦.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنيّ، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م، ص١٠.

(٣) المصدر السابق، ص١٩-٢٠.

(٤) نفسه، ص١٣٠. وانظر -كذلك-: ص١٧٥، ١٧٧.

فالمادّة: "ما به يتكون الشيء كالرخام الذي يُصنع منه التمثال، وتقابل الصورة، وهي الشكل الذي يحدد الشيء كشكل التمثال"(١).

وقد وعى الدرس النقديّ عند العرب أوّليّة "مادّة المعنى" في الصناعة الشعريّة، وعبّر عن ذلك في مواطن كثيرة؛ منها ما أثبته الجاحظ صدر (باب البيان) الذي عقده؛ فاستفتح: "قال بعض جهابذة الألفاظ ونقّاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم، والمتخلِّجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فِكَرهم؛ مستورةٌ خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة..."(٢). واللافت في قولته إزاء ما هذا البحث بسبيله هو محاولة استقراء قرار "مادّة المعنى" في ذات المتكلم أو المنشئ: (الصدر، الذهن، النفس، الخاطر، الفِكْر)، وبيان هيآتها (القيام، التصور...)، وسماتها: (الستر، والوحشية...).

ثم يعقّب بعد أن قرّر منزلة البيان بخاصيّة من خواصّ "مادّة المعنى" تكمن في إبائها القصر أو الحد؛ فهي "مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية"(٣).

ويبدي كذلك في موطن آخر خصيصة أخرى من خصائص "مادّة المعنى" تكمن في كونها معرفة إنسانية مشتركة لا تفاضل فيها أو مراتبية(٤)؛ فيقول:

---

(١) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه، كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص٣٢٣.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د.ت، د.ط، ج١/ص٧٥.

(٣) المصدر السابق، ج١/ص٧٦.

(٤) وفي هذا دحض لما تهافت إليه جملة من باحثي قضية اللفظ والمعنى من تصنيف الجاحظ في زمرة اللفظيين؛ لأن هذا ابتسار لرؤيته؛ فقد عنى بقولته ما دعاه أحد الباحثين (المعنى العقلي) الذي يراه ثمرة بيئة المعتزلة. انظر: الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبيّ عند العرب في العصر العباسيّ، سعيد عدنان، تمّوز طباعة. نشر. توزيع، دمشق، ط١، ٢٠١١م، ص١٧٨.

"... والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ والعربيّ والبدويّ والقرويّ، [والمدنيّ]"[١].

ويصف ابن المعتز الحيّز الزمني لما يعنّ من "مادّة المعنى" بلحظة القلب التي تجاوز سرعةً ومجالًا لخطة العين بما فيها من تعمّق وتأمّل واستحضار وتجريب، وذلك فيما أورده صاحب زهر الآداب: "وقال أبو العباس بن المعتز: لحظة القلب أسرع خطرةً من لحظة العين، وأبعد مجالًا، وهي الغائصة في أعماق أودية الفكر، والمتأمّلة لوجوه العواقب، والجامعة بين ما غاب وحضر، والميزان الشاهد على ما نفع وضرّ، والقلب كالمُملي للكلام على اللسان إذا نطق، واليد إذا كتبت..."[٢].

ويحاول ابن طباطبا أن يقدم خطابًا واصفًا لأوّليّة العمل الأدبيّ؛ حيث "مادّة المعنى" التي يتخلّق منها بأسلوب تعليميّ ذي نزعة عقلية خالصة من غير زراية بما تحمله من أفكار ناقد عالم خبير[٣]؛ وفاءً لما تأسّس عليه الكتاب[٤]؛

(١) الحيوان، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ج٣/ ص١٣١. وقد تابعه أبو هلال العسكريّ؛ فقال نحو قولته هذه. انظر: كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكريّ، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط٢، د.ت، ص٦٣-٦٤.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصريّ القيروانيّ، مفصل ومضبوط ومشروح بقلم المرحوم: د. زكي مبارك، حققه وزاد في تفصيله وضبطه وشرحه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، مكتبة المحتسب، عمّان، ط٤، ١٩٧٢م، ج١/ ص١٥٢-١٥٣.

(٣) انظر: نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلويّ، د. عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال، دار الفكر العربي، مصر، د.ط، ١٩٧٨م، ص١٢٠.

(٤) حيث استفتحه بعد الحمدلة والدعاء بما يدلّ على أن الكتاب في مقام تعليمي، وجوابُ سؤال يرغب فقه الشعر حين قال: "فهمتُ -حاطك الله- ما سألتَ أن أصفه لك من علم الشعر، والسبب الذي يُتَوصّل به إلى نظمه، وتقريب ذلك على فهمك، والتأني لتيسير ما عسر منه عليك. وأنا مبيّن ما سألت عنه، وفاتح ما استغلق عليك منه إن شاء الله تعالى". عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ، ص٥.

لذا نجد مقاربته ذات نظرة مرحلية؛ إذ يقف بالمتلقي على مراحل (بناء القصيدة) [1]؛ معبرًا عن أولاها التي هي مدار هذا البحث بقوله: "فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مَخَض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرًا..."[2]. وتحيل عبارة "مخض" التي وُفِّق ابن طباطبا بالاهتداء إليها إلى دلالات دقيقة تعبّر عن طبيعة هذه المرحلة النشوئية الغائبة التي هي قيد "مادّة المعنى"؛ إذ تدلّ على: ١- الوضع ومصاحباته. ٢- اصطفاء زبدة اللبن. ٣- الحركة الشديدة والتقليب[3].

ويرى قدامة بن جعفر أن ممّا يجب توطيده وتقديمه حيال معاني الشعر "أن المعاني كلها معرّضة للشاعر، وله أن يتكلم منها فيما أحب وآثر من غير أن يُحظر عليه معنى يروم الكلام فيه؛ إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادّة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة..."[4]؛ كاشفًا بذلك عن خصيصة من خصائص "مادّة المعنى" تتمثّل في مشروعية الأخذ المطلق، وامتناع ما يحول دون ذلك أو يقيّده؛ ممّا يجعل ذهن المنشئ في حرية تامة لقصد ما يعتزم القول فيه.

ويستهلّ أبو هلال العسكريّ الباب الثالث: (في معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ) بالفصل الأول: (في كيفية نظم الكلام والقول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله في تأليفه)؛ مبديًا أولى مراحل التكوين أو صناعة الكلام بما

---

(١) دعا د. أحمد مطلوب هذه المراحل الأربع المتوالية: (التفكير، والإنتاج، والترتيب والتنسيق، والتثقيف والتهذيب). انظر: اتجاهات النقد الأدبيّ في القرن الرابع الهجريّ، د. أحمد مطلوب، الناشر: وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص٤٩.

(٢) عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ، ص٧.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، مادّة (م.خ.ض)، ج٧/ ص٢٢٨-٢٣١.

(٤) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص١٩.

دعاه إخطار المعاني بالبال؛ فيقول: "إذا أردت أن تصنع كلامًا فأخطر معانيه ببالك..."[١]، وهو ما لا يكاد يختلف عمّا عبّر عنه حيال المرحلة الأولى من صناعة الشعر لو لم يُحِل الإخطار إلى القلب لمفارقة مقام القول بين الكلام والشعر؛ إذ قال: "وإذا أردت أن تعمل شعرًا فأحضر المعاني التي تريد نَظْمَها فِكْرَك، وأَخْطِرْها على قلبك..."[٢]. وهذه المزاوجة بين الفكر والقلب طورَ "مادّة المعنى" في صناعة النص الشعريّ، وانفراد البال في صناعة الكلام؛ لتسنح القول بتماهي العاطفة والتجربة الشعورية في نسيج "مادّة المعنى"[٣].

ولعلّ هذا التصور حاصلٌ بتملّي صحيفة بشر بن المعتمر التي أثبتها أبو هلال عقب قوله[٤]؛ فكان صدرها يحيل إلى منزلتي: البال والقلب في صناعة القول وتهيئة بواعثه ودواعيه.

وقد استوعب المرزوقيّ هذا التجاوب بين القلب والعقل في سياق وعيه ثنائيةَ المطبوع والمصنوع في مقدمة شرحه الحماسة؛ فجعل القلب يستجيب إلى الباعث، والعقل يجيش بمكتسباته لينتج المعنى؛ فقال: "والفرق بينهما [المطبوع والمصنوع] أن الدواعي إذا قامت في النفوس، وحركت القرائح؛ أعملت القلوب، وإذا جاشت العقول بمكنون ودائعها، وتظاهرت مكتسبات العلوم وضروریاتها؛

(١) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكريّ، ص١٣٩.

(٢) المصدر السابق، ص١٤٥.

(٣) من المزاوجة بين القلب والعقل ما صدّر به النهشليّ باب البيان؛ إذ جعل اللسان خادمًا القلب، وترجمان العقل؛ فهو مؤداهما أو صادرٌ عنهما. انظر: الممتع في صنعة الشعر، عبد الكريم النهشليّ القيروانيّ، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، د.ت، د.ط، ص٣٣.

(٤) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكريّ، ص١٤٠-١٤٢. وأصل كلام بشر بن المعتمر أثبته الجاحظ قبلُ، وثاقفه. انظر: البيان والتبيين، الجاحظ، ج١/ ص١٣٥-١٤٠.

نبعت المعاني، ودرّت أخلافها، وافتقرت خفيّات الخواطر إلى جليات الألفاظ..."[١].

كما سار هذا المسلك ابن رشيق القيراوني حين عطف بذكر الصحيفة على ما ساقه من طرائق جماعة من الشعراء في النظم وما يستدعون به شارده؛ مفضلًا ما لا يخرج عن سبيل بشر ومن ورائه أبو هلال؛ مسندًا القول إلى المعتبرين في ذلك: "وقال بعض أهل الأدب: حسْب الشاعر عونًا على صناعته أن يجمع خاطره بعد أن يخلي قلبه من فضول الأشغال..."[٢].

ونجد عبد القاهر الجرجانيّ يفتّق القول، ويدعو "مادّة المعنى" التي عبّر عنها بالأصل أو الأول "الخبر"؛ فيقول: "فاعلم أن معاني الكلام كلها معانٍ لا تُتصوَّر إلا فيما بين شيئين، والأصل والأول هو (الخبر)... ومن الثابت في العقول والقائم في النفوس أنه لا يكون خبر حتى يكون مُخْبَرٌ به ومُخْبَرٌ عنه"[٣].

ثم عقد القول بإيضاح ما دعاه (الخبر)؛ فقال: "وجملة الأمر أن الخبر وجميع معاني الكلام معانٍ ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرِّفها في فكره، ويناجي بها قلبه، ويراجع فيها عقله، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض"[٤]. وهذه القولة تبين سيرورة صناعة "مادّة المعنى"/ "الخبر"، وصيرورته في ذهن المنشئ بين إنشاء في النفس، وتصريف في الفكر، ومناجاة بالقلب، ومراجعة أخيرة في العقل.

---

(١) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، أحمد المرزوقيّ، نشره: أحمد أمين، وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، المجلد الأول: ج١/ ص١٢.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيروانيّ، ج١/ ص٢١٤.

(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيّ، قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص٥٤١.

(٤) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيّ، ص٥٤٣.

ويرى ضياء الدين ابن الأثير أن المعنى إمّا حاصل استنباط حال حاضرة في الوجود الخارجي؛ إذ يقول: "وجملة الأمر في ذلك أن الشاعر أو الكاتب ينظر إلى الحال الحاضرة، ثم يستنبط لها ما يناسبها من المعاني"(١)، وإمّا حاصل استخراج من غير شاهد حال متصورة، وهذا أصعب وأعسر لا يقوم به إلا الفذّ على حد قوله(٢).

ونظر حازم إلى "مادّة المعنى" نظرة أصنافية مبنية على تصور منطقي أساسه طرفان ووسط؛ فقال: "إن من المعاني ما يوجد مرتسمًا في كل فكر ومتصورًا في كل خاطر، ومنها ما يكون ارتسامه في بعض الخواطر دون بعض، ومنها ما لا ارتسام له في خاطر وإنما يُتَهدّى إليه بعض الأفكار في وقت ما؛ فيكون من استنباطه. فالقسم الأول هي المعاني التي يقال فيها: إنها كثرت وشاعت، والقسم الثاني ما يقال فيه: إنه قلّ أو هو إلى حيّز القليل أقرب منه إلى حيّز الكثير، والقسم الثالث هو المعنى الذي يقال فيه: إنه ندر وعدم نظيره"(٣).

وقد فتّق كيفيّة مناقل الفكر وما يحصل باقتفاء الخواطر بإيراد ثمانية أحوال؛ تمثل أطوار تخلّق أو نشوء؛ منها أربعة كلية تتصل بتخيّل الشاعر المقصد، والأسلوب، وترتيب المعنى، وتشكّل المعاني أو قيامها في الخاطر بعبارات تليق بها، ثم أربعة جزئية تكمن في تخيّل المعاني معنى معنى، وما

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير. تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجّالة – القاهرة، د.ط، د.ت، ج٢/ ص١٢.

(٢) انظر: المصدر السابق، ج٢، ص١٥.

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنيّ، ص١٩٢. وقد أعقب ذلك تفصيلًا انتهى فيه إلى أن مراتب الشعراء فيما يلمّون به من المعاني أربعة: اختراع واستحقاق وشركة وسرقة. انظر: المصدر السابق، ص١٩٦.

يزيّنها أو يكملها، والعبارة الموافقة الوزن، والمعنى الملحق بعبارته التي تفي بما احتاجه الملحق به[1].

ثم ختم هذا التفصيل الدقيق لمناقل الفكر في صناعة "مادّة المعنى" بقوله: "فعلى هذا النحو من الانتقال أصل منشأ الشعر"[2]؛ منبّهًا على أثر الطبع وجودة القريحة في الإسراع باقتفاء الخاطر لهذه المناقل؛ إذ قال: "وقد يحصل للشاعر بالطبع البارع وكثرة المزاولة ملكة يكون بها انتقال خاطره في هذه الخيالات أسرع شيء حتى يحسب من سرعة الخاطر أنه لم يشغل فكره بملاحظة هذه الخيالات وإن كانت لا تتحصّل له إلا بملاحظتها ولو مخالسة"[3].

وبعد؛ فقد تبيّن ما لعبارة "مادّة" من حضور لافت في عدد من مصادر النقد الأدبيّ عند العرب؛ كما أظهرت تلك المصادر حدود "مادّة المعنى" في ذات المنشئ، وتداول قوى الإدراك أطوار النشوء الغائبة، والآفاق التي تبلغها حينئذ، وهو ما يدلّ على تعمّق نظر النقد الأدبيّ عند العرب، ومحاولته سبر تلك العوالم الغائبة، وتفهّمها، وتقديم تفسير وافٍ لا يقتصر على فهم الخطاب الأدبيّ بمعزل عن أحوال المتن التي تمثّل "مادّة المعنى" جوهرها.

٢-مقوّمات "مادّة المعنى":

يراد بمقوّمات "مادّة المعنى" تلك النُّظُم المجرّدة التي يتأسّس عليها تصوّر المنشئ، أو يراعيها حين بناء متصوّر ذهنيّ طورَ "مادّة المعنى"؛ فقد سنّ الدرس النقديّ عند العرب جملة من المقوّمات أولُها الطبع الذي يجعل "مادّة المعنى" تسلم قيادها للذات مرحلةَ النشوء، وتستجيب له في كل أنحاء النظر والتدبير؛ لذا حشد بشر بن المعتمر بواعث ودواعي يسهل بها أَتِيُّ الشعر

(١) انظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنيّ، ص١٠٩-١١٠.

(٢) المصدر السابق، ص١١١.

(٣) نفسه، ص١١١.

ويسلس للشاعر قياده، وحذّر من التوعّر الذي يوبق بالصناعة الشعريّة[١]، وضمّ إلى الطبع مقوّمًا آخر يكمن في إدراك المقام ومقتضياته أقوالًا وأحوالًا؛ فقال: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات؛ فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[٢].

ولفت أبو تمام في وصيّته البحتريّ إلى أهمية المهيئات أو البواعث في استدرار الطبع، وقرن مع ذلك فِقْه مذاهب القول ومجاري المعاني لكلّ غرض، وامتثال سَنَن العرب الأولين بقصد ما استحسنه العلماء واجتناب ما سواه، وهو بهذه الوصية يجدل ما هو فطري بما هو مكتسب، ويرسّخ العلم بمقاصد الشعر وأغراضه، ويحيل إلى الأنموذج أو المثال الذي يستصحبه المنشئ في ذهنه حين الصناعة الشعريّة[٣].

ويعقد ابن طباطبا قوله في أدوات الشعر بتلخيص يجلّي مقوّمات "مادّة المعنى"؛ حيث يقول: "وجماع هذه الأدوات كمال العقل الذي به تتميّز الأضداد، ولزوم العدل، وإيثار الحسَن، واجتناب القبيح، ووضع الأشياء مواضعها"[٤]؛ كما أنه نصّ على مبدأ عام جعله عيار الشعر؛ فقال: "وعيار الشعر أن يُورَد على الفهم الثاقب؛ فما قبله واصطفاه فهو واف، وما مجّه ونفاه فهو ناقص"[٥]، ثم راح يوضح محددات هذا الفهم بقوله: "والفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب

(١) انظر كلام بشر بن المعتمر: البيان والتبيين، الجاحظ، ج١/ص١٣٧-١٣٨.

(٢) المصدر السابق، ج١/ص١٣٨-١٣٩.

(٣) انظر وصية أبي تمام البحتري: زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصريّ القيروانيّ، ج١/ص١٥٢-١٥٣.

(٤) عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ، ص٧.

(٥) المصدر السابق، ص١٩.

الحق، والجائز المعروف المألوف، ويتشوّف إليه، ويتجلى له، ويستوحش من الكلام الجائر الخطأ الباطل، والمحال المجهول المنكر، وينفر منه، ويصدأ له"(١). وهو بوضع عيار الشعر وتفسيره على هذا النحو ينبّه إلى مقوّم مهم يراعيه المنشئ طورَ "مادّة المعنى"؛ إذ إنه يستحضر أسس التقبّل لدى الجمهور، ويراعي القارئ المتخيّل في هذا الصدد؛ فيوافيه بما يأنس من الكلام، أو ما ينتظر(٢).

وينظر قدامة نظرة معيارية تتوخّى بلوغ الغاية المطلوبة من التجديد؛ فيقول... "وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان، من الرفعة والضعة، والرفث والنزاهة، والبذخ والقناعة، والمدح والعضيهة، وغير ذلك من المعاني الحميدة والذميمة: أن يتوخّى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة"(٣).

كما يؤسّس مقدمة لمعاني الشعر أو الأعلام من أغراض الشعراء في المعاني: (المديح، والهجاء، والمراثي، والتشبيه، والوصف، والنسيب) قوامها: جدليّة الغلوّ والاقتصار؛ مختارًا الغلوّ لما يفضي إليه من الـمَثَل أو بلوغ النهاية في النعت(٤).

ويصوّر أبو هلال العسكريّ حال المنشئ مع الكلام على أساس التساوق بينهما؛ فلا يسبقه ولا يلحقه، ولا يردده بلسانه حتى لا تختلط محاسنه بمساوئه وهو في طور التجريب، وإنما يقف الفكر أو الذهن حيال الكلام أو إزاءه يفرّق

---

(١) نفسه، ص٢٠.

(٢) ولهذا ألزم الشاعر في موضع آخر مفارقة ما يعوق الفهم؛ فقال: "وينبغي للشاعر أن يجتنب الإشارات البعيدة، والحكايات الغَلِقَة، والإيماء المشكل، ويتعمّد ما خالف ذلك...". عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ، ص١٩٩-٢٠٠.

(٣) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص١٩.

(٤) انظر: المصدر السابق، ص٥٨-٦٤.

تارةً حين يودّ الاختيار، ويجمعه تارةً حين يودّ أن يخطو بفكره؛ لذلك قال: "وينبغي أن تجري مع الكلام معارضة"(١)، ثم أبان ذلك باعتماده أهل الدراية؛ فقال: "وقالوا: ينبغي لصانع الكلام ألاّ يتقدم الكلام تقدمًا، ولا يتبع ذناباه تتبُّعًا، ولا يحمله على لسانه حملًا... فطورًا يفرّقه ليختار أحسنه، وطورًا يجمعه ليقرب عليه خطوة الفكر، ويتناول اللفظ من تحت لسانه..."(٢).

إن هذا التساوق الذي يحرص أبو هلال على تكريسه في ذات المنشئ يمثل زمام التداعيات الذهنية الذي يكفل حضورها الدائم في البال مع صيانة اللسان إبّان هذه المرحلة من أن يكون مِحْمَلًا لها حتى لا يثقل بما هو متروك أو مفضول.

وينصّ ابن رشيق القيروانيّ على منهاج كل غرض؛ موائمًا بين مذهب القول فيه والمدخل إلى المخاطَب به؛ إذ يقول: "فأول ما يحتاج إليه الشاعر حسنُ التأتّي والسياسة، وعلم مقاصد القول؛ فإن نسب ذلّ وخضع، وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أخلّ وأوجع، وإن فخر خبَّ ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حنّ ورجع، ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنًا من كان؛ ليدخل إليه من بابه، ويداخله في ثيابه؛ فذلك هو سرّ صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا"(٣).

ويؤسّس حازم القرطاجنيّ نظرته إلى "مادّة المعنى" على ثلاثة أسس: الطبع، والبصيرة بالمذاهب والأغراض، وحسن التصرّف في أنحائهما، ويعلّق تدبير ذلك على قوى فكرية واهتداءات خاطرية هي مدار التفاوت بين أفكار الشعراء؛ فيقول: "النظم صناعة آلتها الطبع. والطبع هو استكمال للنفس في فهم

(١) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكريّ، ص١٣٩.

(٢) المصدر السابق، ص١٤٠.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيراوني، ج١/ ص١٩٩.

أسرار الكلام، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التي من شأن الكلام الشعريّأن يُنحى به نحوها؛ فإذا أحاطت بذلك علمًا قويت على صوغ الكلام بحسبه عملاً، وكان النفوذ في مقاصد النظم وأغراضه وحسن التصرف في مذاهبه وأنحائه إنما يكونان بقوى فكرية واهتداءات خاطرية تتفاوت فيها أفكار الشعراء"[1].

ثم أردف قوله بإيراد قوى عشر؛ متنقلًا فيها من العام إلى الخاص، وسالكًا في سردها الطابع المرحليّ لمناقل "مادّة المعنى" قبل أن تستوي خطابًا؛ فكانت أولاها تتصل بانتزاع "مادّة المعنى"، وهي "القوة على التشبيه فيما لا يجري على السجية ولا يصدر عن قريحة بما يجري على السجية ويصدر عن قريحة"[2]؛ لتؤدّي هذه القوة وظيفة تحصيل المعنى أو استنباطه، ثم الثانية: القوة على تصوّر كليات الشعر والمقاصد الواقعة فيها والمعاني الواقعة في تلك المقاصد، ثم الثالثة: القوة على تصوّر صورة للقصيدة، ثم الرابعة: القوة على تخيّل المعاني بالشعور بها واجتلابها من جميع جهاتها، ثم الخامسة: القوة على ملاحظة وجوه التناسب بين المعاني، ثم السادسة: القوة على التهدّي إلى العبارات، ثم السابعة: القوة على التحيّل في تسيير العبارات متّزنة مترابطة، ثم الثامنة: القوة على الالتفات من حيّز إلى حيّز والخروج منه إليه والتوصل به إليه، ثم التاسعة: القوة على تحسين وصل الكلام بعضه ببعض فصولًا أو أبياتًا، ثم العاشرة: القوّة المائزة حسن الكلام من قبيحه من جهة ذات الكلام أو موقعه في السياق[3].

إنّ تعاقب هذه القوى يمثّل مرحلة المجاز بين "مادّة المعنى" والخطاب؛ لذا نجد القوة الخامسة وما قبلها أقرب إلى المقوّمات الكبرى التي يتخلّق بها

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنيّ، ص١٩٩.

(٢) المصدر السابق، ص٢٠٠.

(٣) انظر -بتصرف يسير-: نفسه، ص٢٠٠.

الإبداع. أمّا السادسة وما بعدها فهي أقرب إلى المقوّمات الصغرى التي يتمّ بها استواء ذلك الخلق خطابًا أدبيًّا.

ولعل أول ثلاث قوى توجز النظرة إلى "مادّة المعنى"؛ فالأولى: منزع المادّة الغفل، والثانية: الأنموذج، والثالثة: الحاصل أو النتيجة من تشكيل المادّة الغفل وفاق الأنموذج خاصة أن القوة الرابعة وما تلاها يندرج في القوة الثالثة.

وجملة الأمر أن هذه المقومات ترتد إلى:

- الطبع، والتهيّؤ النفسي، وانبعاث شهوة القول.
- التأسّي بسَنَن الشعر والشعراء، وامتثال مقاصد القول وأغراضه، وما يؤدي ذلك معنًى ومبنًى.
- استحضار المقام ومقتضياته، واستشعار أوضاع المخاطَبين.
- حضور البال، وكمال العقل، ولزوم العدل إزاء التداعيات الذهنية.
- امتلاك قوى إدراكية قادرة على تصوّر اهتداءات الخاطر، ومناقل الفكر.

٣- الصلة بين "مادّة المعنى" والخطاب الأدبيّ:

عبّر الدرس النقديّ عن الصلة بين "مادّة المعنى" والخطاب الأدبيّ بصيغ متعددة يعكس بعضها الاقتضاء الوجوديّ، ويدلّ بعضها على المراتبيّة بينها؛ فمن الأول: التعبير بأنّ المعاني أرواح والألفاظ أجساد لها نحو:

- ما ذكره صاحب كتاب الصناعتين: "وقال العتابيّ: الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح"(١).

- ما أورده الجاحظ في سياق علاقة الأسماء بالمعاني من رسالة (الجد والهزل)؛ إذ قال: "والأسماء في معنى الأبدان، والمعاني في معنى الأرواح. اللفظ للمعنى بدن، والمعنى للفظ روح"(٢).

---

(١) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكريّ، ص١٦٧.

(٢) رسائل الجاحظ، قدم لها وبوّبها وشرحها: د. علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ص٣٤٨.

- ما نقله ابن طباطبا العلويّ من قول بعض الحكماء: "والكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه كما قال بعض الحكماء: للكلام جسد وروح؛ فجسده النطق وروحه معناه"(١).

- ما استهلّ به ابن رشيق القيروانيّ (باب في اللفظ والمعنى)؛ إذ قال: "اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم"(٢)، ثم أخذ يفسر هذا الارتباط الوجوديّ بمأتى الضعف وأثره من أحدهما إلى الآخر.

ومن الآخر؛ أي: ما يُعبَّر به دلالة على المراتبية بينهما:

- قول بشر بن المعتمر: "فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف"(٣).

- ما ذكره الجاحظ بعد بيان شأن المعاني: "وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها"(٤).وكذلك ما اختتم به قولته: "والمعاني مطروحة في الطريق...فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير"(٥).

- ما قدّمه ابن طباطبا من تصوّر لبناء الشعر؛ حيث رتب الصياغة (اللفظ) على "مادّة المعنى"؛ فقال: "فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرًا، وأعدّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه..."(٦).

---

(١) عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ، ص١٦-١٧، وانظر -كذلك-: المصدر السابق، ص٢٠٣.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيروانيّ، ج١/ ص١٢٤.

(٣) البيان والتبيين، الجاحظ، ج١/ ص١٣٦.

(٤) المصدر السابق، ج١/ ص٧٥.

(٥) الحيوان، الجاحظ، ج٣/ ص١٣٢. وقد وافقه عبد القاهر الجرجانيّ في هذا التصور. انظر: دلائل الإعجاز، ص٥٠٨.

(٦) عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ، ص٧-٨.

- ما عبّر به قدامة بن جعفر من تنزيل المعاني بمنزلة المادّة الموضوعة، والشعر فيها بما هو أداء كالصورة[١].

- ما حكاه أبو هلال العسكريّ في صنعة الكلام؛ مرتبًا تخيّر اللفظ على إخطار المعنى في قوله: "إذا أردت أن تصنع كلامًا فأخطر معانيه ببالك، وتنوّق له كرائم اللفظ..."[٢].

إن التمهيد بهاتين الدلالتين اللتين عُبِّر عنهما بصيغ متعددة يقصد ترسيخ متصوّر علاقة التلازم بين "مادّة المعنى" والخطاب، ولا يحيل إلى الجدل البسيط في المفاضلة بين اللفظ والمعنى بقدر ما يودّ إرساءه في تصوّر الجدليّة بين المحتوى أو المتن/ والإطار أو الخطاب.

وقد وثّق الدرس النقديّ عند العرب هذه الصلة بغير طريق كمواجهة المعنى: (معنى الصياغة) الغرض، أو إصابته؛ كما في مستفتح قدامة (نعوت المعاني الدال عليها الشعر)؛ إذ يقول: "جماع الوصف لذلك أن يكون المعنى مواجهًا للغرض المقصود، غير عادل عن الأمر المطلوب"[٣].

وجعل صاحب المثل السائر نحو ذلك شرطًا من شروط الكتابة؛ فقال: "ومن شرط الكتابة أن يكون الكتاب مضمّنًا فَضَّ المعنى المقصود"[٤].

أو عن طريق قياس ما بين "مادّة المعنى" والخطاب؛ إذ دعا ابن طباطبا ما كان فيه الخطاب موافقًا "مادّة المعنى" اسيتفاءً، وما زاد إغراقًا، وما نقص تقصيرًا؛ فأثبت مستهلَّ (سنن العرب وتقاليدها) هذه الأحوال الثلاثة بقوله: "ونذكر الآن أمثلة للأشعار المحكمة الوصف، المستوفاة المعاني...، ونذكر

(١) انظر: نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص١٩.

(٢) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكريّ، ص١٣٩.

(٣) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص٥٨. وقد التزم قدامة هذا التعبير في تناول معاني الشعر (المديح، والهجاء، والمراثي، والتشبيه، والوصف، والنسب).

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، ج٢/ ص٣٩.

الأبيات التي زادت قريحة قائليها فيها على عقولهم، والأبيات التي أغرق قائلوها فيما ضمّنوها من المعاني، والأبيات التي قصّروا فيها عن الغايات التي جروا إليها في الفنون التي وصفوها"[١].

ويسوق قدامة بن جعفر -قبل الخوض في نعوت المعاني الدال عليها الشعر- الخلاف بين مذهبين في ذلك هما الغلوّ والاقتصار؛ فيقول: "وأقدّم أمام كلامي في هذه الأقسام قولًا يُحتاج إلى تقديمه، وهو أني رأيت الناس مختلفين في مذهبين من مذهب الشعر، وهما الغلوّ إذا شرع فيه، والاقتصار على الحد الأوسط فيما يقال منه..."[٢]؛ منتهيًا إلى اختيار الغلوّ الذي يراد به تكريس الـمَثَل وبلوغ الغاية في النعت[٣].

ويصنّف حازم الأقاويل ثلاثة أصناف هي: اقتصادية، وتقصيرية، وإفراطيّة، ويفتّق الإفراطية إلى ثلاثة: إمكانية، وامتناعية، واستحالية، ثم يرتّب رأيه الفني على هذه الأصناف، وما افترع من الإفراطية؛ فيستحسن الأقاويل الاقتصادية، والإمكانية من الأقاويل الإفراطية، ويستسيغ غير مستحسنٍ الامتناعية من الأقاويل الإفراطية، ولا يستحسن ولا يستسيغ الأقاويل التقصيرية، والاستحالية من الأقاويل الإفراطية[٤].

والحاصل أنّ تصوّر الدرس النقديّ عند العرب للصلة بين "مادّة المعنى" والخطاب الأدبيّ نحا منحًى وجوديًا بالتصور الإجماليّ لهما في إطار (الروح والجسد)، وإدراك العلاقة بينهما؛ كما حاول ضبط المسافة بما وصفه كلٌّ من ابن طباطبا العلويّ، وقدامة بن جعفر، وحازم القرطاجنيّ من مقادير بينهما.

---

(١) عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ، ص٥٠. وانظر: المصدر السابق: الإغراق: ص٧٦. الاستيفاء: ص٨٢، ص١٣٨. التقصير: ص١٥٨.

(٢) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص٥٨.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص٦٢.

(٤) انظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنيّ، ص٧٩-٨٠.

● **تركيب:**

سعى هذا البحث إلى استكناه وجه من وجوه النشأة الأولى للخطاب الأدبيّ بالتنقيب في مصادر نقد الأدب عند العرب عن أوّليّة المعنى في ذهن المنشئ؛ بدءًا بما يكرّس استقلال المصطلح "مادّة المعنى"، ومرورًا بتبيّن ما له من مقوّمات، وانتهاءً بما فيه استقرار الصلة بينه وبين الخطاب الأدبيّ.

وقد قاد التنقيب في تلك المصادر إلى وعي الدرس النقديّ هذه المرحلةَ الذهنيةَ الغائبةَ، وقدرةِ التصوّر على عزل "مادّة المعنى" عن أنحاء المعنى الأخرى وضروبه؛ ممّا أملى مراجعة الفهم في تلقّي أقوال سلف النقاد في إطار مفاهيميّ ضيّق كثنائية اللفظ والمعنى.

ولعلّ أهمّ النتائج أو المستفادات التي انتهى إليه هذا الجرد النقديّ يوجز في الآتي:

– أنّ "مادّة المعنى" اصطلاح حاضر متداول لدى ثلّة من النقاد العرب في سياق ما نحا إليه هذا البحث.

– تشكُّل "مادّة المعنى" إمّا من مكتسبات الذهن التي استند إليها من الخارج، وإمّا من قوّة الخيال وإيقاع الوهم.

– تعدُّد تعبير الدرس النقديّ عن مكامن "مادّة المعنى" في ذات المنشئ بين الذهن والعقل والفكر والخاطر والصدر والقلب والنفس، وهي من غير تماهٍ مع إنشائيّتها تشير إلى تنوّع منبت المعنى في الذات.

– تفاوت التصور النقديّ حيال "مادّة المعنى" بين الإجمال والتفصيل، ولعلّ محاولة حازم القرطاجنيّ في رصد مناقل الفكر، وتفتيق مراحل مخاض المعنى تمثّل تصورًا مفصّلاً بعيد الغور.

– تنوّع مقوّمات "مادّة المعنى"؛ فقد سنّ الدرس النقديّ ما يتأسّس عليه تصوّر المنشئ من صحّة الطبع، وكمال العقل، ولزوم العدل، ومراعاة المقام

ومقتضياته أقوالًا وأحوالًا، والعلم بمقاصد الشعر وسَـنَن القـول مـع حـسن التصرف، والقدرة على مساوقة الكلام في الذهن، وامتلاك قوى إدراكية يُتَصَوَّر بها اهتداءات الخاطر ومناقل الفكر.

– انبناء تصوّر الدرس النقديّ عند العرب تجاه الصلة بين "مادّة المعنـى" والخطاب الأدبيّ على أساس الاقتضاء الوجـوديّ، أو اللـزوم، وفـي إطـار المراتبية؛ إذ يسبق الجوهر: "مادّة المعنى"/ العرض: الخطاب.

– اقتفاء الدرس النقديّ المسافة بين "مادّة المعنى" والخطاب الأدبيّ؛ محاولًا ضبط درجة تمثيل الخطاب، وقياس مقدار تمثّله "مادّة المعنى" على نحـو مـا رصده ابن طباطبا العلويّ، وقدامة بن جعفر، وحازم القرطاجنيّ من درجـات متباينة.

وبعد؛ فإن هذا البحث يترسّم خطى التصور النقديّ عند العرب حيال العالم الإدراكيّ في ذات المنشئ الذي سعى جاهدًا إلى تفسير ذاك الصمت، وتجسيد ما هو خارج اللغة والزمن بالعبـارات التـي هـدف جردهـا إلـى الاسـتقرار الاصطلاحيّ على "مادّة المعنى" في تناولها، والاستقلال ببناء حدودها وآفاقهـا، وترسيخ مقوّماتها، وصلتها بالخطاب الأدبيّ؛ لتأتلف مع سواها من مـستفادات الدرس النقديّ عند العرب في تكريس منظور نقديّ متكامل تكوينًا ومعيارًا تجاه أيّ عمل أدبيّ.

* *

ثبت المصادر والمراجع

- الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبيّ عند العرب في العصر العباسيّ، سعيد عدنان، تمّوز طباعة. نشر. توزيع، دمشق، ط١، ٢٠١١م.
- اتجاهات النقد الأدبيّ في القرن الرابع الهجريّ، د. أحمد مطلوب، الناشر: وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، د. أحمد رشدي شحاته عامر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٣٦هـ/٢٠١٤م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د.ت، د.ط.
- التعريفات، السيد الشريف علي الجرجانيّ، وضع حواشيه وفهارسه: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- الحيوان، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيّ، قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
- رسائل الجاحظ، قدم لها وبوّبها وشرحها: د. علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصريّ القيروانيّ، مفصل ومضبوط ومشروح بقلم المرحوم: د. زكي مبارك، حققه وزاد في تفصيله وضبطه وشرحه: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، مكتبة المحتسب، عمّان، ط٤، ١٩٧٢م.

- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- سياسة المعنى، محمد بن العربي الجلاصي، مؤسسة مرايا الحداثة للإنتاج الفكري، ط١، ٢٠٠٦م.
- صناعة المعنى وتأويل النص: أعمال الندوة التي نظمها قسم العربية من ٢٤-٢٧ أبريل ١٩٩١م بكلية الآداب بمنوبة في جامعة تونس، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ١٩٩٢م، مجلد: VIII.
- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، أحمد المرزوقيّ، نشره: أحمد أمين، وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيراوني، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ، تحقيق: أ.د. عبدالعزيز بن ناصر المانع، إصدارات كرسي د.عبد العزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها (٣٥)، جامعة الملك سعود، الرياض، ط٢، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.
- في المصطلح النقديّ، د. أحمد مطلوب، منشورات المجمع العلمي، بغداد، د.ط، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكريّ، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط٢، د.ت.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير. تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجّالة – القاهرة، د.ط، د.ت.
- مصطلحات نقد الشعر عند نقاد القرن الرابع الهجريّ (دراسة وصفية، نسقية، تاريخية)، د. عبد الرزاق جعنيد، عالم الكتب الحديث، إربد، ط١، ٢٠١٦م.

- مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة، د. محمد بركات حمدي أبـــو علـــي، دار البشير، عمّان، د.ط، ١٤٠٨هـــ/١٩٨٨م.
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه، كامل المهنـــدس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
- المعنى الشعريّ في التراث النقديّ، د. حـــسن طبـــل، دار الفكـــر العربـــي، القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـــ/١٩٩٨م.
- الممتع في صنعة الشعر، عبد الكريم النهشليّ القيروانيّ، تحقيـــق: د. محمـــد زغلول سلام، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، د.ت، د.ط.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنيّ، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م.
- نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد، د. ألفت كمال الروبي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، ٢٠٠٧م.
- نظرية المعنى، أ.د. أحمد الودرني، مركز النـــشر الجـــامعي، تـــونس، ط١، ٢٠٠٧م.
- نظرية المعنى في النقد العربي، د. مصطفى ناصف، دار الأندلس للطباعـــة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، د.ت.
- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، الناشر مكتبة الخـــانجي بالقاهرة، ط٣، د.ت.
- نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلويّ، د. عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال، دار الفكر العربي، مصر، د.ط، ١٩٧٨م.
- نقد الشعر في القرن الرابع الهجريّ، د.قاسم مومني، دار الإصلاح للطباعـــة والنشر، الدمام، د.ط، د.ت.

* * *